تجامل القضايا وتجريم النوايا وتهافت الخطاب

صبري حافظ

الحقيقة دائما مؤلمة

وفي ردّ أدونيس ما يدلّ على أنه تألم، وأنّ ما قُلْتُهُ عنه من حق قَدْ أوجعه، وهذا وحده هو الجانب الذي أحترمه في رده. وأما الباقي فإنّ ما فيه من تزوير هو الذي يدفعني إلى الردّ عليه. فبدلاً من أن يتعلم أدونيس من وجعه، أو يحاول اكتشاف أسباب الألم فإنه يلجأ في ردّه المعنون «الثقافة... الجريمة.. التسلية» (**الآداب**: أيار، حزيران ١٩٩٥) إلى التمويه على الحقائق، والتعلق بالأوهام، وتجريم النوايا. هذا فضلاً عن أنه منحني شرفَ تمثيل الردود الثلاثة التي نشرتها **الآداب** (عدد آذار، نيسان ١٩٩٥) والتي اتفقتْ جميعُها في رفض تسويغاته المضلّلة للتطبيع مع عدوّ صهيوني لا يزال يحتل أراضي وَطَنَيْه: سوريا بالميلاد، ولبنان بالاختيار. وإذا كان أدونيس قد بدأ ردّه بأنه قد فوجئ بنشر هذه الردود فإنني قد استغربت مفاجأته لسببين: أولهما يتعلق بالمصادرات التي تنطلق منها مفاجأته، بينما يتعلّق ثانيهما بلغة ردّه ومنطلق خطابه.. إذ تصدر مفاجأته وما تنطوي عليه مقدّمات ردّه من عتاب لصاحب المجلّة والاستشهاد بمقال له نشره قبل أكثر من ثلاثين عاماً عن تناقض واضح من كاتب يزعم أنّه مع الحرية، بينما يفضّل قمعَ الرأي الآخر وحذفَه، بدلاً من الحوار معه. وكان يتمنى لو قام صاحب المجلة عنه بهذه المهمّة الرديئة.

وهذه بالمناسبة هي وسيلته في تأليب رؤساء تحرير الصحف والمجلات على من يختلفون معه في الرأي. وقد فعل الشيء نفسه مع رئيس تحرير **القدس** التي كنتُ قد نشرتُ فيها القسمَ الخاص بندوة قرطاج من الردّ المنشور في **الآداب** بعدما صدر العددُ التالي لذلك الذي نُشر فيه المقال الذي تناولته من **الآداب** دون أن تنشر الردّ الذي بعثت به إليها، أو تشير إلى أنها ستنشره في عدد قادم. فما كان منه إلا أن بعث لرئيس تحرير **القدس** بردّ مقتضب ينفي فيه صلتَه بتنظيم ندوة تونس، ويعاتب رئيس التحرير على نشر المقال مفضّلاً لو وَأَدَهُ[1] ويستخدم في تبريره لطلب قمع الرأي الآخر ومحوه حججاً من قبيل: حتى لا يتصور أحد أن ما كتبته عنه يعبّر عن رأي الصحيفة (يعرف أيُّ غر بطلانها وأن ما تنشره أيّ مطبوعة لا يلزم إلا كاتبه). لكنها الرغبة في تسويغ قمع الرأي الآخر ومحوه. إذن نحن بإزاء ممارسة تفضّل الحذفَ والقمعَ على الحوار، وتستخدم [أي الردود على أدونيس] ما تظنّ أنه نفوذُها الثقافي، لمصادرة الرأي الآخر، بينما تشقشق بالدفاع عن الحرية والانتصار للحداثة وتعدّد الرؤى.

أما السبب الثاني فإنه يتعلق بلغة الرد /الجريمة التسلية/ التي تعتبر الرأيَ الآخر بل والردودَ كلَّها «تجريحاً» و«تخزيناً»؛ فهي [أي الردود على أدونيس] «لا تنتمي للثقافة» وإنما «تنتمي لعالم أساسه الجريمة ومداره التجريم» «لا تنتقد الأثر، وإنما تجرّم الشخصَ نفسَه وتخوِّنه» وتحوّل المجلةَ [**الآداب**] إلى «محكمة للتفتيش» «تتبنى قاتليه» (كذا؟) و«مكان تتحول اللغةُ فيه إلى مجزرة، والكلماتُ إلى خناجر وقنابل» في حال «تتجاوز حدود الاتهام إلى القتل» (كذا؟)، وأن «هناك مستوى من سوء النية عند كل من يكتبون ضدي، ومستوى من الضغينة والتفاهة» (كذا!). أما الردّ الذي نشرتُه على مقاله «حول قضايانا الراهنة» فإنّه «اتهام وتجريح» يصدر بالطبع عن «نية اتهامية تجريحية» تحكم وتوجّه كلَّ ما أقولُه عنه وتستند «إلى الأخلاق والتزوير وإلى تأويلات بالغة الفساد، إضافة إلى حقد هائل أحار في قدرة الإنسان على احتضانه والتمتع به». وأما نقدي لكتابه عن محمد بن عبد الوهاب فهو «متابعة لتقليد ثقافي مشؤوم، سياسي مذهبي أو فِرَقي بالمصطلح القديم، لا يجيز الكلام عن العدوّ الفكري ويقطع بعزله ونبذه أو قتله» أو «يجب محوُه أو حرقُه بشكل أو بآخر، وإذا تعذّر ذلك فلا بدّ من تشويهه أو تأويل ما يقوله بطريقة تخرجه عن مقاصده الأصلية. ولذلك فإنه يتصور أو يؤوِّل ما كتبتُه بطريقة تخرجه عن مقاصده الأصلية، معتبراً أنه يصدر عن «عقلية سحرية بدائية» تتّسم بـ«غياب الهاجس المعرفيّ» و«انهيار الأخلاق والقيم والثقافة» و«الجهل والخوف والانحياز الأيديولوجي

المسكين والأعمى» (كذا؟) تشنّ عليه «حرب انتحال» و«حرب استئصال»، وهو يعرف بالطبع «من يقف وراء هذه الحرب»؛ ولذلك يُخرج الردودَ من «إطار الثقافة والحوار الثقافي» ولا يرى فيها «إلا ظاهرة نفسية».

هذه عيِّنة من مفردات قاموس أدونيس الفجّ الفاشية في المقال كله. وبالإضافة إلى هذه المفردات التي يغيب معها كلُّ أملٍ في الحوار، وتختفي القضايا وسطَ الرغبة المسعورة في تجريم النوايا، وتسود فيها عقليةُ البعد الواحد التبسيطية، فإنّه يلجأ إلى استراتيجية نصيّة أخرى تمزج التجاهلَ بقدرة تهكّميّة مفقودة للأسف حينما يعمد إلى حذف اسمي والإشارة إليَّ بـ«الدكتور، الأكاديمي، الأستاذ، الجامعي، صاحب المقال». وباستطاعتي بالطبع اتّباعُ طريقته نفسها بالإشارة إليه على أنه «السيد الشاعر السابق» أو «محرر المجلة المغلقة مرتين» أو «المدرِّس بالحصة في جامعة أوروبية مغمورة» أو حتى بـ«علي أحمد سعيد الذي يدعو نفسه أدونيس» وغير ذلك من الحيل التهكّميّة اليسيرة، ولكني أترفّع عن مثل هذا الأسلوب وعن قاموس أدونيس الفجّ برمّته، كي أتناول القضايا التي ينطوي عليها مقاله في الردّ عليّ، وأضعَ أمام قراء **الآداب** «الأصفياء النابهين» ومن تأذّى منهم خاصة من استخفاف أدونيس بعقولهم وهو يوضح «بضع نقاط لا تتعلق بشخصي، فأنا أضع نفسي فوق الدفاع عنها، إزاء هذا القتل، وإنما تتعلق بالثقافة العربية وبالوعي الفكري العربي وبأخلاقية الكتابة»[٢] بعضَ ما يتعلق بمنطلقات هذا الرد المتهافت، ولأُثير في الوقت نفسه عدداً من القضايا المتعلقة بطبيعة استراتيجيات خطاب التسوية والدعوة للتطبيع مع العدوّ الصهيونيّ، هذا الخطاب المتهافت الذي لا يمثّل خطابُ أدونيس الجديد إلا وجهاً واحداً من وجوهه المتعدّدة التي تتبدّى تجلياتٌ أخرى له في خطاب علي سالم أو علاء حامد أو إميل حبيبي أو غيرهم من الذين يروِّجون للتطبيع ويسوِّغون التردّي والتبعيّة، ويحاولون بيعَ سلام الأنظمة الفاسد للرأي العام العربي.

ومن البداية أودّ التأكيدَ، علّ أدونيس يتحرّر من أوهامه، على أنه ليس بيني وبينه أيُّ خلاف شخصي على الإطلاق؛ فعلاقتي الشخصية به محدودةٌ للغاية كما يعرف. كلُّ ما بيني وبينه هو ما يتعلق بقضايا الفكر وموقف المثقف من أمّته، وأنّه لو لم يكتب مقاله «حول قضايانا الراهنة» الذي حاول فيه تبريرَ التطبيع مع العدو الصهيوني، لما زاد أسفي عليه عن أسفي على كاتب سقط في شراك رؤى العدو ويسعى يائساً أو بائساً لتبرير هذا السقوط كما هو الحال مع إميل حبيبي أو علي سالم أو علاء حامد. فأنا أرفض بشكل قاطع، ومن إحساس بمسؤوليتي كمثقّف عربي من مصر – ذات الأغلبية العظمى القومية الرافضة –، كلَّ أشكال التطبيع مع عدوّ صهيونيّ ينهض برنامجُه الأيديولوجيُّ العنصريُّ على دمارنا، ولا يزال يسعى لإخضاعنا والسيطرةِ النووية علينا برغم كلّ دعاوى السلام واتفاقياته. فقد كتبتُ ردّي على مقاله الأول من منطلق رفض قاطع لنموذج من الخطاب يمثّل أمهرَ ما في جعبة خطاب التسوية وتسويغ التطبيع من الاعيب منطقية ومناورات معرفية، ورغبةً في فضح هذا الخطاب أمام القارئ وليس حقداً على شخصه الكريم الذي لا يهمّني في شيء، ولم تجمعني به إلا المصادفات وحدها. فهو يعرف جيداً، ويعرف القرّاءُ معه، أنني انتمي منذ بداتُ الكتابة والنشر في مطلع الستينات إلى تيّار ثقافيّ وفكريّ مغاير كلياً لذلك الذي ينتمي إليه. ولم أنشر مرة واحدة لا في **شعر** التي ظهر فيها، ولا في مجلته المغلقة **مواقف** برغم إلحاح غير محرّر من محرّريها عليّ بالكتابة فيها أكثر من مرة. وكان الأحرى به أن يفهم أن تباين منطلقاتنا الفكرية هو وحده ما دفعني للردّ عليه. [وكان الأَحْرى] أن يبرّر للقراء «الأصفياء النابهين» لا لي بالطبع، دواعي مشاركته في مهرجان روتردام وفي ندوة غرناطة ودعوته للحوار مع مثقّفي العدوّ الصهيوني الذي كان على رأسهم عندما تحاور معهم في غرناطة «شيمون بيريز» بالرغم من أنّ دماء الفلسطينيين والعرب لا تزال على يديه.

ومن البداية أودّ أن أكشف للقارئ أنّ خطاب أدونيس المتهافت هو الخطاب الذي يدور في مدار التجريم والتسلية، بالرغم من أنه ليس مسلّياً على الإطلاق. وينطلق من منطق محاكم التفتيش دون إرهاق للعقل بفحص القضيّة المطروحة، والانطلاق بدلاً من ذلك من تصورات مسبّقة هي أقرب إلى أوهام ذاتٍ تتمركز على نفسها وتطرحها في مقابل عالم تتصوّر أنه مليء بالأعداء الذين لا همَّ لهم إلا النيل من هذه الذات المتضخمة، وتسعى إلى تشويه الآخر ومحوه. فبعد أن كشف للقراء أنّه كان يودّ من صاحب المجلة مصادرةَ الرأي الآخر لا من أجل الحقيقة وإنما حمايةً لشخصه، يشير في نصّه نفسِهِ إلى أنه –التزاماً منه بالعقلية العلمية الموضوعية بالطبع لا بالعقلية السحرية البدائية التجريمية التآمرية –قد ألّب شخصاً آخر يسبق اسمَه بنصف سطر من الألقاب: «الأستاذ الشاعر والروائي والباحث التونسي عبد الوهاب المؤدب» ليبعث لصاحب **الآداب** بخطاب استعداء مماثل لخطابه المتهافت.. وقد أحسنَتِ **الآداب** بنشر ردّ الأستاذ المؤدّب ضمن ردّ أدونيس لأنه جزءٌ لا يتجزأ منه، لا لأنّ ردّ أدونيس يحيل عليه ويعتمده فحسب، ولكن أيضاً لأنه ينزح

من قاموس أدونيس الذي يتّسم بالتهذيب البالغ والموضوعية الكاملة (....) أو يحاول أن يتفوّق عليه بذكر ألفاظ مثل «الدناءة وروح التدخل البوليسي والنميمة والأكاذيب والافتراء الفادح». ويزعم [الأستاذ المؤدّب] أنّ ردّي «لو كان نُشِرَ في بلدٍ يحكمه القانونُ لكان تعرّض كلٌّ من كاتبه وناشره إلى الملاحقة الجنائية». لكنّه لو طبّق هذا المعيار نفسَه على ردّه الركيك لتعرّض هو الآخر للمحاكمة الجنائية. غير أنّ هذا الأمر لا يهمّني في شيء، بل كل ما يهمّني في توضيحه هنا هو منطقُ تأليبِ الأعوانِ والنفخ فيهم وتحريضِهم على المشاركة في خطابٍ لا ينتمي أبداً إلى عالم «الجريمة».

وليس في ردّ عبد الوهاب المؤدّب، عدا الركاكة والشتائم الفجّة، إلا التأكيدُ على أنه تولّى بنفسه المسؤوليّة عن تنظيم لقاء قرطاج، وقام فيه بدور «المستشار والخبير»، دون إنكار أيٍّ من الوقائع التي ذكرتُها حوله. ولا أدري كيف يمكن لشخص كهذا لا يحسن العربية، ولا أعرف له أيَّ إسهام في أدبها، أن يصبح «مستشاراً وخبيراً» فيما لا خبرة له به. أو يبدو أنّ السيد عبد الوهاب المؤدب لا يعرف، بالرغم من أنه «أستاذ وشاعر وروائي وباحث» حسب شهادة أدونيس وحده، أنّ من الممكن لشخص أن يصبح أداةً في يد آخر، أو لو أحسنّا النية، أن تتطابق رؤاهما حذو النعل بالنعل، فلا تخرج قائمةُ اختياراته من الكتّاب العرب في أغلبها عن القائمة التي كان يزيّن بها أدونيس صَدْرَ مجلته **مواقف**(...). وبالإضافة إلى محرري مجلة **مواقف**، كان هناك رمز آخر من رموز خطاب التسوية والدعوة للتطبيع مع العدو الصهيوني هو إميل حبيبي، مع عدد كبير من كتّاب من أصل عربي يكتبون بالفرنسية، جلّهم ليسوا معروفين بين مثقّفي العربيّة - باستثناءِ وحيد يؤكد القاعدة ولا ينفيها - ناهيك عن قرّائها، ولا دخل لهم بمستقبل الأدب العربي الذي ليس لهم فيه بالطبع أدنى إسهام، وفي أغلب الأحيان لا يحسنون قراءته، ناهيك عن معرفته إلى حدّ أن يصبحوا «خبراء» فيه. وكنت أودّ لو عمَدَ السيد عبد الوهاب المؤدّب إلى توضيح الحقائق للقراء حول هذه الندوة، ومعايير اختياراته لها، بدلاً من أن يرتدي قناعَ عقلية بيضاء عتيقة كتلك الأقنعة التي نعى فرانز فانون في **جلد أسود، أقنعة بيضاء** تغلغلَها تحت جلد المستعمر، ويحاضرنا في أدب الحوار واحترام القانون ثم لا يقدّم لنا نموذجاً لذلك.

ولا يهمني في هذا المجال مَنْ كان «المستشار أو الخبير» وإنما تهمُّني نتيجةُ الخبرة والاستشارة البائسة التي أتت بمثقفين من الكيان الصهيوني يكتبون بالعبرية لا العربية (سامي ميخائيل)، وبناءً على توصية من سفير الدولة العبرية باليونسكو، وصهاينة معروفين بعدائهم للعرب (ألكسندر بلوك) [وأتت بـ] يهودي كندي مغمور (لتمثيل كتّاب العراق، واضطُرَّ أثناء انعقاد الندوة لإنكار تمثيله للعراق) للمشاركة في ندوة إلى جانب كتّاب عرب حول الأدب العربي والتباحث في مستقبله في القرن الواحد والعشرين. ولم تكن لدى السيّد «الخبير والمستشار» الأمانةُ المطلوبةُ لإبلاغ المشاركين بالأمر ليحدّدوا موقفهم سلفاً من المشاركة في الندوة أو مقاطعتها؛ وهذا ما دعا البعض للاعتراض على هذا علناً في الندوة ذاتها، ودعا آخرين للندم على المجيء للمشاركة فيها وإعلانَ تنصُّلهم منها (راجع تقرير جمال الغيطاني في **أخبار الأدب** عنها). وأودّ أن أبيّن للسيد المؤدب، ولأدونيس مساعدةً لهما في فهم حقيقة ردّي، أن موضوع ندوة تونس كان مجرد مثال أخير في سلسلة مواقف بدأت في روتردام واستمرّتْ في غرناطة والسويد ثم جيءَ بها إلى قرطاج؛ وهي سلسلة مواقف كان مقال أدونيس «حول قضايانا الراهنة» محاولةً لتقديم الأساس النظري لها، ولذلك استوجب الردّ، لا مني وحدي، وإنما من كتّاب آخرين كذلك. فهي مواقف تستهدف كلها تسويغَ التطبيع مع العدوّ الصهيوني، وتمريرَ سلام الأنظمة التابعة والمهزومة، وشقَّ صفّ المثقفين الرافضين للتطبيع بإحراجهم والكذبَ عليهم، وجلبَهم إلى ندوة فوجئوا في اللحظة الأخيرة فيها أنّ بها كتّاباً عبرانيين من الكيان الصهيوني، الذي لا يزال نظامُه يحتلّ أراضي ثلاث دول عربية، ويقتل الأطفالَ الفلسطينيين كل يوم. أفَضْحُ هذا السلوك هو الذي يتّصف بـ«الدناءة والنميمة والأكاذيب والافتراء الفادح» أيّها السيّد المؤدّب؟

وبالإضافة إلى تأليب الأتباع وحثِّهم على الردّ- وإلاّ فكيف يشير في مقاله إلى مقال لم يُنشر إلاّ في العدد الذي ظهر فيه مقاله، ويضفي على كاتبه أهميةً ليستْ له ولم يبرهن على جدارته بها - فإنّ هناك استراتيجية أخرى مكملة لها في خطاب أدونيس الذي لا يتّسم (بالطبع) بالتآمر، ولا ينتمي إلى عالم العصابات والجريمة ويخلو كليةً من العقلية القبلية السحرية البدائية. وهذه الاستراتيجية هي الإشارة إلى أن له عزوةً وقبيلة، إن لم نقل عصابةً من الأتباع والذيول، يهدّد بها الآخرين ويباهيهم، فهو يقول...: يزيدني اعتزازاً وفخراً بأصدقائي المنتشرين في أنحاء الأرض العربية وخارجها... أنها القوة التي لا تنخدع بالتزوير والضجيج الذي يرافقه، وأنها الضمير الحيّ الساهر. إنها بما تكتنزه وتصدر عنه قوةٌ لا تُغلب أبداً. ومن هذا بالضبط أستمدّ قوّتي». وإذا كان أدونيس يسمّي من اختلفوا معه في الرأي بالقَتَلةَ، فبماذا نسمّي نحن هذا اللجوءَ إلى تأليب الأعوان، للردّ على

الخصم، والتهديد بأفراد آخرين منتشرين في البلاد العربية وخارجها؟ هذا بالطبع أمرٌ لا علاقة له بالقتل أو الجريمة، وربما تكون له علاقة بالتسلية. أما كتابتي لردٍّ مستقلٍّ دفاعاً عن قضية قومية عامة – وكان من حسن حظي أنّ هناك مَنْ شعر بالحاجة نفسها للكتابة فيها، مثل الدكتور سامي سويدان والدكتور جمال الدين الخُضور، ثم تابع تناولَها، ومن منطلق مماثل: الدكتور فيصل درّاج في العدد الذي نشر فيه أدونيس ردّه: «الثقافة...الجريمة...التسلية» – فهو أمر ينتمي لعالم القتل والجريمة!.

ولا تنفصل استراتيجيةُ التباهي بالقبيلة أو «الشلّة» عن وجهها النقيض والمكمل، وهو لعبُ دور الشهيد والمقتول. ولهذا يكرّر في ردِّه عبارات القتل، ويصرخ ملتاعاً حتى يقنع القارئ بدور الضحيّة: «إنني وحيد ليس ورائي دولة، ولا حزب، ولا طائفة ولا جماعة، ولا اتّحاد». ويذكرُ ماضياً لا دليل على صحته إلاّ شهادةُ راويه، ويحاول أن يقنع القارئ أنّه ضحيةُ تاريخ مستمرّ من الاضطهاد، مرّة لأنّه أهدى قصيدةً لعبد الناصر– وتذكير **الآداب**، التي رفعتْ رايةَ العروبة ووقفت إلى جانب الوجه المُضيء من المشروع الناصري، بذلك أمرٌ لا يخلو من غرض – وأخرى لأنه متماهٍ مع الشرّ في نظر البعث العراقي، وثالثة لأنه وحيد... فتأمل!

أيّهما نصدّق إذن: أنّهُ وحيدٌ مسكينٌ تتبنّى **الآدابُ** قاتليه، أم أنه زعيم جماعَة «لا تُغلب أبداً»؟ لكنّ التناقض جزءٌ أساسي في بنية الخطاب التزويري. كما أنّ هذا التأرجح بين دور الشهيد الذي يعاتب **الآداب** لأنها تبنّتْ «قاتليه» ويسعى إلى استدرار تعاطف القرّاء عليه ضدّ من اختلفوا معه في الرأي ويسمّيهم بالقتلة والمجرمين، ودور المناور الذي يؤلّب الآخرين للردّ، ويهدّد مَنْ يختلف معه بجماعته التي تكرّر جلّ مقولاته ببغائيةٍ يُحسدون عليها... أقول: إنّ هذا التأرجح ليس إلا تجسيداً للتمحور حول الأنا بدلاً من التركيز على القضايا. وهذا هو السرّ في أنه يعتبر أيَّ اختلاف مع هذه الذات المركزية «تمذهباً أعمى»، وكلَّ مشايعةٍ لها هي عين الموضوعية. والواقع أنّ التمحور حول الذات هو الذي يتطلّب تجاهلَ القضايا وهو المسؤول عن تهافت الخطاب(...). فبدلاً من تمحيص القضايا التي تتردّد في الردود الثلاثة ثم في المقالات الثلاث الأخرى[٣] التي نُشرت في العدد الذي نُشِرَ فيه ردُّه، يعمد أدونيس إلى استراتيجية نصّية متهافتة تعتمد على الاختلاق من ناحية وتجريم النوايا من ناحية أخرى. فمن حيث الاختلاق والتزوير يستخدم في إحدى فقرات ردّه «الثقافة... الجريمة... التسلية» عدة عبارات يضعها بين علامات تنصيص ليوحي للقارئ أنها مقتطفة من المقال الذي يردّ عليه، حينما يزعم أن تناولي لكتابه السقطة عن محمد بن عبد الوهاب «متابعة لتقليد ثقافي مشؤوم... لا يجيز الكلام أصلاً عن العدو الفكري ويقطع بعزله ونبذه أو قتله. ولئن جاز التحدّث عنه فلا بدّ أن يُقرن اسمُه بعبارات مثل «الزنديق»، «المرتدّ»، «الشعوبي»، «المبتدع»، «قبّحَه اللّه»، و«نعوذ باللّه منه ومن شروره»... موحياً للقارئ بأنّ العبارات الموضوعة بين علامات تنصيص مقتطفة من مقالي، وهو أمر غير حقيقي. لكنه الاختلاق والتزوير الذي يستهدف قطع العدوّ الفكري وعزله ونبذه أو قتله ولو حتى باختلاق عباراتٍ لم تردْ على الإطلاق في مقاله.

أما تجريمُ النوايا فإنّه يسفر عن نفسه في رد أدونيس «الثقافة... الجريمة.. التسلية» أكثر من مرة. فعندما يتوهّم أن ثمّة حروباً تُشنّ عليه يبادر فيضيف: «ولا أريد هنا أن أتساءل عمن يقف وراء هذه الحروب، (كذا؟) أترفّع عن ذلك وأضرب عنه صفحاً». ولكنّه سرعان ما يتناسى هذا الترفّع عندما يعلن للقرّاء بثقة مخبر بوليسي: «إنني أعلم علم اليقين أن وراء هذه الردود دوافعَ أخرى أترفّع عن الخوض فيها. ويستطيع القرّاء «الأصفياء النابهون» بعد قراءة المقالات الستّ أن يدركوا أنّ الدافع وراء هذه الردود كلّها هو أمر بالغ الوضوح لمن يفهم ما يقرأ، وهو الغيرةُ على مستقبل الأمّة، والتصدّي لخطاب التردّي والاستسلام والهزيمة، وفضحُ استراتيجيات خطاب العدو... وقد تجلّى [هذا الخطابُ] هذه المرةَ على ألسنة قِطاع من الذات العربية وممن يزعمون أنّهم مثقفوها، وهم في الواقع نماذجُ على احتلال العقل الذي أصبح وسيلةَ قوى الهيمنة الجديدة في السيطرةِ على بلادنا، وفرض رؤاهم علينا من خلال مَنْ يزعمون أنّهم مثقفونا، وصحفيّونا، والدائرون في مداراتنا.

ولذلك، ومن هذا المنطلق نفسهُ، أوضح للقرّاء بعضَ القضايا التي أثارها أدونيس في ردّه «الثقافة.. الجريمة.. التسلية» وأُولاها هي قضية البيان الذي نشرتُه كما يقول «مع شخصين آخرين سوري وعراقي باللغة الفرنسية» إمعاناً منه في تجاهل الأشخاص بغية محوهم، واتساقاً منه مع موضوعيته التي «لا تجيز الكلامَ أصلاً عن العدوّ الفكريّ وتقطع بعزله ونبذه أو قتله». وهو بيان أو «كتاب أبيض» بالتعبير الفرنسي المشهور كتبه الناقد العراقي كاظم جراد وعرضه عليّ وعلى الناقد السوري صبحي حديدي، فوقّعْنا عليه معه، ردّاً على ما نشره أدونيس في صحيفة **ليبراسيون** الفرنسية من أنّه فُصِل من اتّحاد الكتاب في سورية لأنّه يكتب باللغة العربية عن كتّابٍ من أصل يهودي مثل دريدا وجابيس ولاڤينس، وهو أمر فضلاً عن أنه لا أساس له، يعطي القارئ

الفرنسي أقبحَ صورة عن الثقافة العربية التي تفصل كاتباً من اتّحاد الكتّاب لأنّه يكتب بالعربية عن كتّاب من أصل يهوديّ، خاصة وأنّ أدونيس لم يكتب بالعربية شيئاً ذا بال عن هؤلاء الكتّاب أصلاً؛ كما أنّ فصله من اتحاد الكتّاب السوري لا علاقة له بذلك. ولأن هذا الأمر لم يكن الأول من نوعه، وكان استمراراً لسلوكيات مشابهة مارسها أدونيس في دوراتِ ما يُسمّى ببرلمان الكتّاب بستراسبورج ولشبونة وفي كواليسه - وأترفّع هنا عن الخوض فيها، فأدونيس نفسه حريصٌ على إخفائها - رأيتُ من واجبي التوقيع على هذا البيان.

وكان هذا الردُّ والبيانُ الذي بعثنا به إلى صحيفة **ليبراسيون** محاولةً لوضع الأمور في نصابها الصحيح، والكشف عن معايير الخطاب المزدوج لذلك الذي يكتب للعرب زاعماً أنّ «أساس نشاطي الفكري في أوروبا والعالم أن أعطي للثقافة العربية وجهاً محاوراً منفتحاً على الآخر»[٤] وأنه آلى على نفسه محاربةَ الصورة السائدة في الغرب عن الثقافة العربية والتي تمنحها «صورة كريهة تخيّل للغربي أن ثقافتنا ضدّ الحرية، وضدّ الإنسان، وضدّ الفكر»[٥] لكنّهُ يعلن للفرنسيين ما يؤكّد هذه الصورة الكريهة، ويعطيهم عنها مثالاً قبيحاً لثقافة ضد الحرية وضد الآخر، حتى ولو لجأ في سبيل ذلك للتزوير، علّه يكتسب بالطبع تعاطفَ الفرنسيين، واليهود منهم بشكل خاص، لأنّه اضطُهِدَ بسبب كتابته عنهم.

فمنطلقُ البيان الذي يؤوّله في ردّه تأويلاً بالغَ الفساد، ويخفي عن القارئ سياقَ كتابته، وما انطوى عليه من ردّ للإهانات التي ألحقها بصورة الثقافة العربية في الغرب... هو الدفاعُ عن الثقافة العربية ضد اختلاقات أدونيس التي تشوّهها، وتزعم أنها تضطهد من يكتبون فيها عن الكتّاب اليهود، وهو أمر أقلّ ما يقال عنه إنه تزوير فاضح يتطلّبُ من أيّ كاتب عربيّ أن ينكره. ولذلك وقّعَ عليه كتّابٌ ثلاثة، من ثلاثة بلاد عربية مختلفة، لا ينتمون إلى تيار فكريّ أو مدرسة واحدة، ولا تجمعهم إلا الغيرةُ على صورة الثقافة العربية في الغرب. فإذا ما أنكرناه، وحاولنا ردّ هذا الاختلاق عن الثقافة العربية التي تعاني من أكاذيب أعدائها، أوّلَ إنكارَنا بطريقة «بالغة الفساد» على أنه دعوة لاعتقاله أو طرده! وهذه مرة أخرى من أعراض مركزية الذات وتأويل كلّ دفاعٍ عن أي قضية بأنه ضدها.

أنتقل الآن إلى القضية الثانية في ردّه، وهي التي تتعلق بما كتبتُه عن كتابه السقطة عن محمد بن عبد الوهاب، ولجوئه إلى الاختلاق والتزوير في هذا المجال أيضاً.

يقول أدونيس الذي يسعى للتوليف بين «مواقف» متناقضة على الدوام: «ليست مقدمتي لكتاب **محمد بن عبد الوهاب** إلا فصلاً من كتاب **الثابت والمتحوّل** - الطبعة الجديدة بأجزائها الأربعة، دار الساقي ١٩٩٤- وقد صدرتْ مع مختارات من كتاباته، عن دار العلم للملايين، ضمن مشروع عن مفكّري عصر النهضة - وأنا أوّل من نقد هذه التسمية ودعا إلى تغييرها- سمّيْناه ديوان النهضة». وقد ذكّرَني حرصُه على نقد التسمية وتغييرها من «مفكري عصر النهضة» إلى «ديوان النهضة» بالنكتة المصرية التي تقول بأن شخصاً اسمه علي الحيوان لامه الناس على رداءة اسمه وطالبوه بتغييره فغيّره إلى سعيد الحيوان... لكن المهمّ، وبعيداً عن مماحكات التسمية وما تنطوي عليه من فكاهة سوداء هو أنّ طرح هذا الجدل الزائف حول تغيير اسم السلسلة هو إحدى استراتيجيات خطاب التسوية والهزيمة الذي يقلب المسمّيات، علّه يتمكن من خلال ذلك من قلب الوقائع والتواريخ. وهذا نفسه هو أسلوب النظام العالمي الجديد السائد في تسمية أعداءِ هيمنتهم وإخضاعهم للآخرين بالرجعيين، وتسمية أنصارِ مشروعهم الزائف بالمتحرّرين والمنفتحين والعاملين من أجلَ المستقبل والتغيير. بهذا المنطق نفسه يصبح فكرُ محمد بن عبد الوهاب المحافظ بل والرجعي هو «ديوان النهضة». ويدافع داعيةُ الحداثة القديم عنه باعتباره «هو التيار الإسلامي الغالب اليوم إن شئنا المعرفة والموضوعية وله عدا هذا الجانب النظري- المعتقدي حضورٌ قويّ وفعّال ومنظّم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي». ولا يكتفي بهذا- لأن من استراتيجيات خطاب التسوية والهزيمة الذي تتجلى ملامحه في ما يكتبه أدونيس، نشر اليأس بين الرافضين لهذا الخطاب، والعمل على تهميشهم - بل يواصل تكريس هذا الفكر السلفي الجامد، ويؤكد أن «نبذه وإنكاره لا يغيّران من الأمر شيئاً وإنما يشيران إلى ضحالة النابذين، وإلى جهلهم أو خوفهم، وإلى انحيازهم الأيديولوجي المسكين والأعمى» (كذا؟). أما تكريس هذا الفكر الوهّابي وتقديمه على أنه «ديوان النهضة» فلا ينطوي بالطبع على أي انحياز أيديولوجي مسكين أو أعمى!

ويتعلّل أدونيس- تجسيداً منه لاستراتيجية أخرى من استراتيجيات خطاب التسوية وتسويغ الهزيمة المتهافت، وهي استراتيجيّة التخليط والتزوير- بأنّ مقدّمته لكتابه عن ابن عبد الوهاب الذي نشره عام ١٩٨٣ هي فصل من فصول الطبعة الجديدة من **الثابت والمتحول** التي نُشرت عام ١٩٩٤. ما معنى هذا التخليط؟ فمقدمته لكتاب ابن عبد الوهاب، إن أصبحتْ بعد نشرها بأكثر من عشر سنوات، وبتزوير واختلاق فاضحين، فصلاً من كتاب لم تكن في طبعته الأولى، لا يعني بأيِّ حالٍ من الأحوال أنّ كتابتها، وكتابةَ الكتابِ كلِّه،

أمرٌ مقبول من كاتبٍ يتناقض خطابُهُ مع الفكر الذي يقدّمه ابن عبد الوهاب، أو هكذا قدّم نفسَه للناس حتى تلك اللحظة. وهذا هو جوهر اعتراضي على تأليفه للكتاب. فالكاتب ليس بائع خضار يبيع كلَّ الخضار بصرف النظر عما تحتويه من فوائد أو سموم، بل هو صاحب موقف... أم تراه لدى أدونيس صاحب «مواقف» عديدة ومتناقضة!؟ صحيح أنّه نجح في إخفاء الكِتاب عن الواقع الثقافي عشرَ سنوات، ولمّا افتُضِحَ أمرُهُ ضمَّ مقدمتَه للطبعة الجديدة من **الثابت والمتحول** في محاولة لوضعها في سياقٍ أَعْرَضَ، أو لإخفائها فيه. لكنه أسقط هذا الكتاب، هُوَ وكتابَ سَقْطةٍ آخَرَ نَشَرَهُ في الستينات بعنوان **قضية باسترناك**، من قائمة كتبه التي يحرص على نشرها كاملةً في آخر جلّ مؤلفاته. وإذا كان يعتزّ حقاً بالكتاب فلماذا أسقطه من قائمة مؤلفاته؟ ولماذا أخفى اسمَه في داخله، ولم يضعْه على غلافِهِ الخارجي كما هي الحال مع بقية كتبه؟!

فليس أيُّ كتاب بمعزول عن السياق الذي يُنْشَر فيه، وعن دوافع كتابته. فقد يكون من الطبيعي أن يكتب كاتبٌ الآن عن باسترناك، ولكن دون أن تكون كتابته أداةً ضمن سياق أيديولوجي محدّد و«مسكين وأعمى». وهذا هو الحال مع الكتابة عن محمد بن عبد الوهاب. لكنّ أدونيس لم يكتب عن محمد بن عبد الوهاب في الستينات، ولم يكتب عن باسترناك في الثمانينات. بل كتب عن باسترناك في الستينات وإبّان احتدام الحرب الباردة، وحينما كانت الكتابةُ عنه جزءاً من معركة أيديولوجية طاحنة، وهو الكاتب الذي يلعن «التمذهب الأيديولوجي». وكتب عن ابن عبد الوهاب في بداية الثمانينات، ونجمُ الدولة التي تنهض أيديولوجيَّتُها على فكره في صعود، ونفوذُها في ازدهار. فابنُ عبد الوهاب هو أيديولوجيُّ الدولة النفطية التي تحيل صحفُها الآن أدونيسَ إلى عَلَم وإلى نجم لهذه المرحلة الجديدة التي تفرض فيها هيمنتها وفكرها؛ فهو يدور في مداراتها ويكتب مقالَه الأسبوعي في صحيفةٍ صاحبُ امتيازها أحدُ أمراء الأسرة الحاكمة في تلك الدولة، وهو من كان يُسَمَّى بقائد القوات العربية المشتركة في «عاصفة الصحراء».

وهي الصحيفة نفسها التي أقامت الدنيا ولم تقعدها حينما علّقَ اتحادُ الكتّاب السوري عضويةَ أدونيس فيه أو تنصلّ منه – ضعف الطالب والمطلوب!. وهي الصحيفة عينها التي تسعى إلى إحكام قبضة الهيمنة الأمريكية على المنطقة، وإدخال دولها وشعوبها في حظيرة التبعية، وتمريرِ مخططِ التسوية وسلام الأنظمة المهزومة، وتكريسِ تحالف الأنظمة النفطية مع الهيمنة الأمريكية والسيطرة الصهيونية على المنطقة. ولذلك كانت إثارتها لقضيته جزءاً من مخطط إرهاب الخصوم، وتسويغ التطبيع، والتنديد بمن يجرؤ على معارضة رموزه – ناهيك عن التنصّل منهم واستنكار تصرفاتهم. فلا بد إذن من تصوير هؤلاء المعارضين لسلام الهزيمة على أنهم متخلّفون رجعيون وغير ديموقراطيين. أما أنصارُ التطبيع، وَكَتَبَةُ نُظُم النفط وتبرير الهيمنةِ الأمريكيةِ وفرض السلامِ الصهيونيِّ على المنطقة، فَهُمْ نجومُ هذا الزمن العربي الرَدِيءَ واقطابُ هذه الصحيفة الذين يتحلّون بالموضوعية، والانفتاح، والديمقراطية. هذا كلّه جزء من طبيعة الخطاب الذي نفضحه، والذي يجعل من طرد أدونيس من اتحاد كتاب – وهي مسألة لا قيمة لها – قضيةً طنّانة، بينما يصمت عن الحصار المفروض على أطفال العراق وعلى الشعب العراقي والشعب الليبي، وعلى انتهاكات الصهاينة المستمرة لحقوق الشعب الفلسطيني ولقرارات الأمم المتحدة بشأنه[٦].

وأودّ أن أعلن للقارئ ولأدونيس أيضاً أنّه ليس لديَّ اعتراض على تناوله لمحمد بن عبد الوهاب بـ «احترام ودقة وموضوعية». ولكنّ اعتراضي كلّه منصبٌّ على تخبّط أدونيس وتناقض دعاواه ونصوصه، وكشف هذا كلّه للقارئ، لأن إحدى وظائف النقد(...) هي تمحيصُ النصوص وإعادةُ تقييم المكانات الأدبية. وقد كان هذا جوهرَ منهجي في التعامل مع كتابه عن ابن عبد الوهاب. فقد وضعتُ مقولاتِ مقدمته أمام نصوصٍ أخرى من كتب أدونيس نفسه، ولذلك لم أشرْ إلى القسم التاسع من هذه المقدمة الذي يقول عنه في ردّه: «وقد طرحتُ عليها بعد عرضها أسئلةً تظهر مدى الخلل فيها (كذا؟)، ومدى انفصالها عن الواقع المعيشي الحيّ، لكن السيّد الدكتور تعامى كليةً عن هذه الأسئلة». وهو يقصدني بتلك العبارة المهذبة في آخر هذا المقتطف، ولذلك فإنني أقول له، وقد أعفتني **الآداب** بنشرها للمقدمة في العدد الماضي من تكرار هذه الأسئلة الساذجة، إنّ سبب غضّ الطرف عنها أنّها لا تنطلي على عقل طفل، لا لأنّها أسئلة من داخل المشروع فحسب، ولا لأنّها ليست من النوع الذي ينطوي على تحدّيه أو نقضه فقط، ولكنْ أيضاً لأنّ بعضَها يبدو وكأنّه محاولة لمدّ نطاق بعض أفكار هذا المشروع، كفكرة التوثين فيه، لتشمل المال والاقتصاد والسياسة أكثر مما هو تحدٍّ لها.

هذا علاوةً على أنّ القسم العاشر والأخير من المقدمة ينطوي على ما يُعرف بالإنجليزية بالاستنكار أو التنصل dis-claimer من الأسئلة المطروحة عندما يؤكد (ويُفرد لهذا التأكيد قسماً مستقلاً من مقدّمته، إبرازاً له وتأطيراً لأهميته؛ فللنهايات ثقلها الدالّ) أنّ «هذه تساؤلات لا تقلّل في شيء من أهمية التصانيف التي تركها الإمام محمد بن عبد الوهاب. وليس هذا مما تهدف إليه، إنها مطروحة لغاية واحدة: المزيد

من المعرفة، والمزيد من الفهم». ليس على إطلاقهما بالطبع، لأن السياق يحتم أنها المزيد من المعرفة بتصانيف الإمام، والمزيد من الفهم لها. والواقع أن القارئ يدرك بسهولة أن أدونيس لا يزال حريصاً، حتى في ردّه المترع بقاموس من المفردات البالغة التهذيب والعذوبة، على ألا ينال فكر ابن عبد الوهاب أي من مفردات قاموسه الرقيق المكتظّ بالصفات الحميدة، وعلى ألاّ يبدو معارضاً له أو متحدّياً لمقولاته، ناهيك عن إظهار الخلل فيه. فهو يريد ألا يُغضب أنصارَ فكر ابن عبد الوهاب الجامد والمتخلّف، وأن يبدو في الوقت نفسه علمانياً وعقلانياً ومقبولاً من أصحاب الفكر العقلي المتحضّر. وهذه بالطبع من سمات بحثه المعرفي الذي يؤلف بين «مواقف» متناقضة بموضوعية وشفافية لا تكشف أبداً عن «انهيار الأخلاق والقيم والثقافة».

ولو استخدم أدونيس «الموضوعية الكاملةَ» التي تتحلى بها كتاباتُه كما يخبرنا، وحاول أن يقرأ مقالي عنه «من الداخل» ممعناً في «صدق الموضوعية وشفافيتها» كما يقول لنا، لما فاته أن يدرك أن تناولي كتابَه عن ابن عبد الوهاب كان يستهدف الكشفَ عن الخيط الخفيّ الذي يربط هذا الفكرَ الوهابيّ، والأنظمةَ العربية التي تتبناه، وحتى الحركات التي تمارسه أو تؤيده، بمخطط التطبيع، وفرض الهيمنة والتبعية الصهيونية الأمريكية على المنطقة، وبالتالي بخطاب التسوية الذي قدّمت مقالتُه «حول قضايانا الراهنة» أمهرَ ما في جعبته من تبريرات.. لا لأنّه كما يزعم هو الوهابي الوحيد، أو الخميني الوحيد، برغم يقيني من مهارته الفائقة في التنقل بين «المواقف» (...) فهو رجل يدّعي لنفسه الحداثة، ولكنه لا يعرف رحمةَ الشك أو حيرة الأسئلة، ولا يخطر له أبداً أن يكون على خطأ. يدافع عن كل تناقضاته، ويجنّد الآخرين للدفاع عنه، يرى أنه على حق في تقديمه لفكر منظِّر أغنى دولة في المنطقة وأهم حليف لأمريكا فيها مع العدو الصهيوني، وأنّه على حق أيضاً في تأييد الثورة الخمينية لرفضها التبعية لأمريكا في الآن نفسه. ينعى على الآخرين عقليّتَهم السحريةَ البدائية وتمذهبَهم الأعمى، ويقدّم لنا في الوقت نفسه نموذجاً ناصعاً على لغة البحث والتساؤل والمعرفة التي تضخّم الذات، وتعتبر كلَّ اختلافٍ معها حربَ قتل وتمذهباً أعمى.

ولا يهمّني في نهاية الأمر إنْ أيّد أدونيس الثورةَ الإيرانية أو أنكرها، ولكن ما يهمّني أنه لا يزال غير قادر على رؤية تناقضاته. يعلن للقرّاء أنه أيّدها لأنّها ضد التبعية للغرب الأوروبي والأمريكي؛ فهل تأييده للتطبيع، وحوارُه مع مستعمري أرضه من الصهاينة العاملين على فرض التبعية على المنطقة، يتساوقان مع هذا الموقف؟! ولا يهمني إن كان يسعى جاهداً للحصول على الجائزة، أو إن كان سعيه هذا هو أحد تجلّيات الكلام عن جائزة نوبل في الوسط الثقافي العربي وهو كما يقول، وأوافقه عليه «عار على الثقافة العربية من حيث مستواه المعرفي والأخلاقي». كل ما أرجوه أن يكون صادقاً فيما قاله في هذا المجال؛ وأن ينصبّ ردّه على القضايا دون التفتيش في النوايا أو الاستسلام لإغراءات الأوهام؛ وأن يبحثَ عن «أبجدية» جديدة غير تلك الفاشية في ردّه، والتي قدّمنا عيّنة منها للقرّاء؛ وأن يتحلّى بقدر من الخيال الذي يمكّنه من أن يتصوّر أن هناك من يؤلمهم أن يتساقط الكتّاب في مباءة النفط والتطبيع، وأن يُباعوا بالجملة مع صحيفتهم كما كانت تباع الإقطاعياتُ بأقنانها، دون أن يكون وراءهم أي شيء آخر غير الغيرة على الوطن، والإيمان بقضيّته، والحرص على كرامة الكلمة؛ وأن يدرك أنّ قوة مراكز التزوير الإعلامية وتسلطها وتسلحها بأموال النفط العاتية تارة، وبخبراء اليونسكو في عهدها الأمريكي الجديد تارة أخرى، لن تمنح خطاب التسوية والتطبيع المصداقيةَ في الثقافة العربية، ولن تضفي عليه احترامَ الوجدان العربي مهما بلغت سطوتها، ومهما كانت مهارة الذين يكتبونه في استخدام استراتيجيات هذا الخطاب المقلوب والمتهافت والتي استهدف ردّي كشفَ آليّاتها للقرّاء. وأخيراً أرجو أن يتعلّم أدب الحوار وأن يمارس في قابل الأيام ما يدعو إليه من «الموضوعية القائمة على احترام الآخر وتقديم آرائه بدقة كاملة»، كي لا يكون ردّه مصداقاً لمقولته: «إنّ الأفكار مهما كانت عظيمة تصغر عندما تمرّ في العقول الصغيرة».

القاهرة

---

(١) لعله يدرك الآن أنّ السبب في أنني لم أُشر إلى توضيحه الذي نَفى فيه مسؤوليته عن تنظيم الندوة، ولم ينكر مشاركته فيها بالطبع، هو أن المقال الذير نشرته **الآداب** كُتب وأُرسل لها أولاً، فلمّا لم تنشره في حينه نَشرتُ في **القدس** قسماً منه. وبعد ذلك بأكثر من شهرين نشرت **الآداب** الردّ الكامل، وإن حذفتْ منه بعضَ العبارات والفقرات.

(٢) هذا المقتطف وكل المقتطفات الواردة بين علامات تنصيص بعد ذلك من أدونيس في مقاله: «الثقافة.. الجريمة.. التسلية» المنشور في **الآداب** عدد ٥ – ٦ أيار، حزيران ١٩٩٥.

(٣) وهي مقالة سامي سويدان «المثقف العربي من الطليعة إلى الفجيعة»، ومقالة فيصل درّاج «بين قضية أطفال العراق وقضية أدونيس»، ومقالة جمال الدين الخضور «التأسيس الثقافي للخطاب التسووي» في العدد ٥-٦ من **الآداب**.

(٤) أدونيس «حول قضايانا الراهنة» **الآداب** العدد العاشر، أكتوبر ١٩٩٤، ص٣.

(٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٦) أرجو من القارئ في هذا المجال أن يعيد قراءةَ مقال فيصل درّاج المهم في العدد ٥ – ٦ من **الآداب**.